مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 04، ديسمبر 2022، صص: 79- 94

تاريخ الاستلام (2021/02/03) تاريخ القبول (2022/11/04) تاريخ النشر (2022/12/30)

مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية
مرجعياته، دلالاته، وظائفه

The notion of discourse in western culture
Its references, connotations, functions

عبد الرزاق الفراوزي

جامعة محمد الخامس، الرباط (المغرب)، taha1032009@hotmail.fr

ملخص:

يروم هذا المقال النظر في مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية، ويقف عند مرجعياته العلمية والفلسفية واللسانية، كما يناقش أبعاده المعرفية ويبحث في وظائفه، ويسائل علاقته باللغة والفكر والسلطة. ولأجل ذلك، تتبعنا أهم الأصول النظرية للخطاب في التراث الغربي، ووقفنا عند خلفيته الفلسفية، و أبرزنا دورها في تحديد ماهيته. كما قمنا بتوضيح تعدد دلالاته بدءا بتصورات ديكارت، ومروراً بأعمال بيشو وألتوسير وفوكو وغيرهم، وصولا إلى طروحات اللسانيات والتداوليات وفلسفة اللغة. وقد خلصنا إلى أن الحقول المعرفية، على تنوعها، قد قاربت الخطاب برؤيتها المنهجية، وهو ما أفرز تراكما في الإنتاج، وتبايناً في التحديد، وتعدداً في الوظائف.

كلمات مفتاحية: الخطابة، الخطاب، الثقافة الغربية.

Summary:

This article aims to examin the concept of discourse in western culture, and stands at its scientific, philosophical and linguistic references , It also discusses the dimensions of cognitive discourse, investigates its functions, and questioned its relationships with language, thought and power. For this reason , we traced the most important theorical origins of discourse in the western heritage, and we looked at his philosiphical background. We also clarified its multiple connotations, starting with Descarte, throught the Pécheux works, Foucault, Althusser, and other, down to the propositions linguistics, pragmatics, and the philosophy of language. We

المؤلف المرسل: عبدالرزاق الفراوزي، الإيميل: taha1032009@hotmail.fr

have concluded that those cognitive domains approached the discourse with its methodological vision, wich gave an accumulations in definition, and a multiplicity of functions .
Keywords : Rhéthorique- discourse- western culture

مقدمة:

إن شكل الخطاب، عبر التاريخ الإنساني، مركز استقطاب وموضع اهتمام، لا باعتبار مفهومه فحسب، بل بالنظر إلى وظائفه السياسية والاجتماعية وعلاقاته باللغة والفكر والسلطة والإيديولوجيا والأخلاق وغيرها من القضايا التي لا تزال مطروحة للنقاش. وقد اكتسب البحث فيها طابعا دينيا وسياسيا وايديولوجيا ولسانياً بحسب الأنساق الفكرية والعلمية والسياقات السياسية والتاريخية التي أطّرته وتحكّمت في اتجاهه،فقاربه الباحثون على تنوع مشاربهم واختلاف تخصصاتهم العلمية من زوايا متنوعة، استنادا إلى خلفياتهم المعرفية واهتماماتهم البحثية ومرجعياتهم الإيديولوجية، فأنتجت هذه المقاربات رؤى مختلفة، سواء على مستوى حدّه الاصطلاحي أو على مستوى بنياته ووظائفه وأدواره في التاريخ والمجتمع، لذلك تم التعامل معه باعتباره مفهوما مائعاً متعدد الدلالات، تحكمه معطيات اجتماعية ولغوية وفكرية وسياسية وحضارية.

وقد تمظهرت بنيات هدا المفهوم في البيئة الغربية[1]،بناء على معطيات السياق الحضاري والتاريخي للثقافة الغربية بنسختها الإغريقية والغربية الحديثة، وباستحضار مجمل التطورات العلمية والتحولات الفكرية التي لحقت مجالات العلوم بمختلف أشكالها؛ وعلى رأسها اللسانيات وعلم الاجتماع وعلم السياسة.

تأسيسا على هذا التوجيه المنهجي، سننظر في الأسس الابستمولوجية المشكلة لمفهوم الخطاب، وسنستجلي مرجعياته الفلسفية والإيديولوجية واللسانية، وسنقف عند أهم التصورات المؤسسة لبنيته المفهومية وعلاقته باللغة والفكر والسلطة والثقافة. منطلقين من إشكالية جوهرية نطرح من خلالها أسئلة للتحليل والمناقشة، من مثل: إلى أي حد أسهم المعطى الحضاري في رسم ملامح الخطاب في الثقافة الغربية؟ وكيف طبع هذا المعطى الحضاري مسار الخطاب إيديولوجيا ومعرفيا؟ وما أثر الخلفية الفلسفية واللسانية والسياسية في تعدد دلالات المفهوم؟ وما أبرز وظائف الخطاب؟

تدفعنا هذه الإشكالية إلى مناقشة الأسس الفلسفية والخلفيات العلمية والإيديولوجية التي شكلت منابع صبّت في اتجاه تأصيل اصطلاحية الخطاب وبنْينة مفهومه

وتوجيه مساراته وتحديد وظائفه ضمن الأنساق الاجتماعية والسياسية والثقافية التي حكمت المنظومة الفكرية الغربية. وسنتتبع لبيان ذلك منهجاً تاريخيا وتحليلياً-نقدياً نؤرخ من خلاله لمسار تطورات المفهوم، ونسائل عبره أهم التحولات الإبستمولوجية التي عرفها من خلال ممارسة الفعل النقدي على الأثر الإيديولوجي والمعطى العلمي والسياقات السياسية التي أسهمت في تعدد دلالات المفهوم وتنوع وظائفه وعلاقاته.

1-التأصيل النظري لمفهوم الخطاب في التراث الغربي

أثار مصطلح الخطاب، في الدراسات اللغوية قديما وحديثا، إشكالية مفاهيمية ارتهنت بالخلفية العلمية للدارسين، وتصاقبت مع توجهاتهم الإيديولوجية والسياسية، كما ارتبطت بالمجال المعرفي الذي تصدر عنه (اللغة/الفلسفة/الدين/ السياسة...)، وخضعت للبيئة الثقافية والفكرية والسياسية للمجتمع.

هذا المعطى المنهجي، نلفيه جلياً في الفكر الغربي بنسختيه الإغريقية والغربية الحديثة حيث شكلت الثقافة اليونانية خلفية فكرية ومرجعية حضارية أسهمت في رسم ملامح المفاهيم، وصياغة المصطلحات وتوجيهها وتحديد دلالاتها وأبعادها إلى حدٍ كبير.

فإذا كان مفهوم الخطاب في الثقافة العربية ارتبط بالمنظومة الدينية، وتطور في أحضانها، فإنه في الفكر الغربي استمد مشروعيته من خلال الفلسفة الإغريقية وطبيعة النظام السياسي الأثيني وشكل البنية الاجتماعية، عبر أفكار السوفسطائيين ومحاورات سقراط وأفلاطون وكتابات أرسطو وغيرهم من منظري الفكر اليوناني.فقد اهتم سقراط بالحوار واعتبره خطاباً يجسد الطريقة المثلى لاكتشاف الحقيقة وإقناع الآخرين بها، راسماً بذلك توجهاً يعكس الرؤية الدلالية للمصطلح من خلال تعبيره عن الفكر الإنساني الذي يقتضي السمو به عبر الفعل الحواري كأحد أرقى الأشكال التواصليةالتي تحفظ للإنسان إنسانيته وتمنحه الأمن للعيش المشترك في المدينة، فطرح على أساس ذلك، رؤية متقدمة للخطابة[2]تُقرنه بالحوار، والحوار هو تواصل بين طرفين، في الغالب مختلفين، وعليه فإن بنية الخطاب هي بنية حوارية اختلافية غير إقصائية تؤمن بالآخر المختلف، وتنهض على فن ممارسة الحوار لإقناعه والتأثير فيه بوجهة نظر المحاوِر أو المحاورين، وهو ما يتطلب حصراً معرفة الجماهير التي يراد إقناعها بمضمون الخطاب (الكلام). إن تصور سقراط للخطاب، إذن، تصور متقدم،بحيث نجد له امتدادات في الدراسات الغربية الحديثة، وخاصة مع الأبحاث التي ارتبطت بالتداوليات وفلسفة اللغة.

وبدوره فصّل أرسطو في الخطابة وتحدث عن فائدتها وأنواعها وغاية كل نوع منها، وربطها بالمؤسسات اليونانية(المؤسسة القضائية والمؤسسة السياسية والمحافل العمومية الاحتفالية)، ويرى الباحثون، في هذا المجال، أن الخطابة نشأت في ظل الحرية التي عرفتها أثينا، وترعرعت في إطار الدفاع عن الحق والتصدي للظلم والجور، وهذا ما يؤكده أرسطو حين قال بأن "الخطاب يستخدم للتعبير عن النافع والضار، وتبعاً لذلك، للتعبير أيضاً عن العادل وغير العادل"[3]، فارتبطت بذلك الخطابة بسلطة القول المقنع بحججه المؤثرة في المتلقي،فشكّل أرسطو، بناء على ذلك، منعطفاً مهماً في مجال تداول الخطاب وممارسته، وقد عرَّف الخطابة بقوله: "إنها الكلام المقنع، وهي نوع من القياس"[4]فاعتبرها "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[5].وقد شرح ابن رشد كل كلمة في هذا التعريف فقال: ويعني ب "القوة": الصناعة التي تفعل في المتقابلين، وليس يتبع غايتها فعلها ضرورة، ويعني ب "تتكلف": أن تبذل مجهودها في استقصاء فعل الإقناع الممكن، ويعني ب "الممكن": الإقناع الممكن في ذلك الشيء الذي فيه القول، وذلك يكون بغاية ما يمكن فيه، ويعني بقوله: "في كل واحد من الأشياء المفردة": أي في كل واحد من الأشخاص الموجودة في مقولة من المقولات العشر"[6]، ومن المهم الإشارة، هنا، تناسباً مع الوظيفة الإقناعية التي افترضها أرسطو، وهي وظيفة تقتضي الإتيان بالبراهين والحجج الداعمة، فذكر ،بناء على ذلك، أنماطا من البراهين؛ منها القياس والاستقراء والأهواء، كما تحدث عن الحجج المميزة للخطاب فحصرها في ثلاثة أنماط، يقوم النمط الأول على الخاصيات الأخلاقية للخطيب (الإيتوس) وقدرته على التهيئة النفسية للمستمع، ومن هذه الخصال نَجِدُ اللب والفضيلة، والبرَّ، والثاني يقوم على الأحوال النفسية للمستمعين(الباتوس)ومدى استعدادهم للتعاطي مع موضوعات الخطابة، والثالث يرتبط بخصائص الخطاب نفسه (اللوغوس). وقدفصّل أرسطوبشكل مستفيض فيأسلوب الخطاب، من جهة برودته وسلامته ومناسبتهلمقتضى الحال، وأنواعه ووسائل تجميله ليؤدي غرضه الإقناعي والتأثيري، وقد عبّر عن أهمية ذلك بقوله:"إن فضيلة المقال(الأسلوب) أن يكون بالتغيير، لأن الكلمة رَسْم ما، فإن لم توضِح شيئاً فإنّها لا تعمل عملها إلاّ أن تكون لا حقيرة دنيئة ولامجاوزة للقدر الذي يستوجب"[7].أما السوفسطائيون فقد استعملوا الخطاب لغرض التأثير وبهدف ربح القضايا السياسية وغيرها، بغض النظر عن المعرفة ومسألة الحق والحقيقة، فوظفوا، من أجل ذلك، اللغة بإمكاناتها المتنوعة من مغالطة ومحاججة واستعارة وتشبيه وتمثيل وغيرها لتحقيق سلطة

الخطاب، لذلك كانت"عضلات السوفسطائيين من كلمات، وأذرعهم هي الألسن، وساحاتهم هي ساحات النقاش، وأسلحتهم تسمى البرهنة والخطبة والأسطورة كذلك"[8]وقد ناهض أفلاطون تصورات السوفسطائيين، انطلاقا من بحثه في مفهوم الفضيلة،كمفهوم كلي وضرورة حضارية ومجتمعية وتربوية، ومعارضته لمواقف السوفسطائيين المغالطة، بحيث صورهم تجاراً للمعرفة، يجيدون فن الدعاية والمراوغة، فراهن على خطابة جديرة بالفيلسوف،فالخطيب الحق عند أفلاطون "هو ذلك الصادق العادل الذي يستعين بالفلسفة في دراسة العدالة ونشرها، والذي يدعو لأن نكون أخياراً في السر والعلن، ولأن نكون عادلين دون أن نطمع في الجزاء"[9]. ونشير هنا أن للخطابة منفعتان، كما ذكر ذلك ابن رشد، "إحداهما أن نحُثَّ المدنيين على الأعمال الفاضلة(...)، والمنفعة الثانية، أنّه ليس كل صنف من أصناف النّاس ينبغي أن يستعمل معهم البرهان في الأشياء النظرية التي يُراد منهم اعتقادها"[10].

2- الخلفيات الفلسفية والمحددات الثقافية ودورها في تشكيل مفهوم الخطاب

لقد وجَّهتالخلفيات الفلسفية للباحثين اليونانتاريخ الفكر الغربي الحديث بشكل كبير، وكان لها وقعها الواضح على مجمل الأبحاث التي تعرضت لمفهوم الخطاب ووظائفه التأثيرية والإقناعية والمعرفية وعلاقاته بالسلطة والإيديولوجيا، ويمكننا أن نستدل على ذلك من خلال عدد من الكتابات التي تؤيد هذا المنحى ابتداء من العصر الحديث، فكتاب رينيه ديكارت "مقال في المنهج" جسّد امتداداًلمفهوم الخطاب الذي يستقي بعض معطياتهمن الرؤية الأفلاطونية التي تنظر إلى الفكر باعتباره مرآة تعكس الحقيقة كما يرسمها الواقع الاجتماعي والسياسي للأفراد والمجتمعات، والعقل البشري هو العقل الموجّه لكل الإحساسات التي يعبر عنها بشكل لفظي أو غير لفظي، فجعل من العقلانية أساساً لتجاوز الموروث الثقافي للعصور الوسطى، راسما بذلك لبنات خطاب فلسفي حديث أعطى للعقل مساحة واسعة في التفكير والتحليل وتفسير القضايا المجتمعية والفكرية والسياسية،ثم تطور مفهوم الخطاب كمبحث مُهمٍّ ضمن سيرورة الحركة العلمية والفلسفية والسياسية، تتقاسمه مجموعة من الحقول المعرفية؛ منها الفلسفة، وعلم الاجتماع، والتاريخ وعلم النفس والنظريات النقدية، وعلم السياسة واللسانيات والتداوليات وغيرها من العلوم، ونُظر إليه باعتباره وحدة كلية، يتألف من جمل منسجمة ومتسقة مرتبطة برباط منطقي لها معنى ونفوذ في سياق اجتماعي ما، ومرهونة بخلفية المتكلم ونسقه الثقافي ومرجعيته

الأيديولوجية، بحيث لايمكن عزله عن الواقع الذي يعيش فيه، ولا فصله عن الخطابات السابقة التي يتفاعل معها، ويخضع في تحديده لطبيعة المؤسسة التي تحتضنه، كما تختلف طرقه في تمثيل العوالم وتصوير الأفكار والمشاعر والرؤى"بين مختلف الناس، (الذين) قد يتكاملون أو يتنافسون أو يسيطر بعضهم على بعض، وما إلى ذلك، وتشكل ضروب الخطاب جزءاً من الموارد التي يستخدمها الناس في العلاقات بينهم، لكي يبقوا منفصلين عن بعضهم، أو لكي يتعاونوا، أو يتنافسوا، أو يسيطروا"[11].

والخطاب بكونه آلية لاستعمال السلطة والسيطرة تبرز هويته انطلاقا من المؤسسات الصادرة عنه، فحين يتحدث اللغوي عن "لغة الخطاب السياسي"، فهو يشير، بالضرورة، إلى شيء مختلف كليا أو جزئيا عن لغة الخطاب الديني أو الخطاب الشعري أو غيره من أنواع الخطابات الإنسانية الأخرى، فالكلمات تغيّرُ معناها من خطاب إلى آخر تبعاً لأوضاع مستعمليها ومواقعهم الاجتماعية والدينية والسياسية، كما تتأثربالإيديولوجيا، فالمعاني، كما تذهب إلى ذلك ديان مكدونيل،"جزء من المناخ الإيديولوجي، وأن الخطاب شكل من الأشكال الخاصة للإيديولوجيا"[12].

ضمن هذا الإطار العام، برزت أفكار ربطت بين الخطاب والإيديولوجيا والمجتمع والسلطة، من خلال تعرف معاني الخطاب عبر بوابة المسار الإيديولوجي الذي يشتغل داخلها، ونجد هذا التصور واضحا في أعمال بيشو Pêcheux (1982) الذي وقف عند العلاقات التي تربط الخطابات بالممارسات الإيديولوجية وباللغة، وقد اعتبر أن "الخطابات ليست مسالمة على الإطلاق، فهي تنتج عن الصدام بين بعضها البعض، ولهذا السبب كان هناك بعد سياسي لكل مرة تستخدم فيها الكلمات والعبارات في الكتابة أو الكلام"[13]، وهذا التوجه نجده واضحاً في دراسات فان دايك Van Dijk الذي اهتم، فيها، كثيراً بالخطاب وعلاقته بالسلطة وبالإيديولوجيا، حيث ذكر أن "السلطة يعاد إنتاجها خطابياً، وتصبح نافذة وتضفي عليها الشرعية عن طريق الخطاب"[14]، وأكّد أن" السلطة ليست مجرد وسيلة للسيطرة على أفعال الآخرين، بل هي وسيلة للسيطرة على عقولهم، وأن عملية السيطرة على العقول هي عملية خطابية في المقام الأول"[15]، ويتمظهر هذا التصور كثيراً في آراء ألتوسيرAlthusser، الذي ارتبطت أفكاره بالخطاب الماركسي، فصدرت أعماله ضمن هذا المنحى، فتحدث عن الخطاب ووظيفته الإيديولوجية، وقوته الرمزية والسلطوية، وأثره في بنية المجتمع، ودوره في تحديد طبيعة الصراع وآليات المواجهة. وقد أشار إلى أن الكلمات في

الصراع السياسي، والإيديولوجي "هي أسلحة ومتفجرات، أو مهدئات وسمومٌ، ويمكن أحياناً تلخيص صراع الطبقات كله في الصراع من أجل كلمة ضد كلمة أخرى، وهناك كلمات بأعيانها، تتصارع فيما بينها كما يتصارع الأعداء. وهناك كلمات أخرى هي موئل الغموض؛ فهي المطلب الذي تدور حوله معركةحاسمة ولكن دون أن يتم الفصل فيها"[16].

لقد شكلت أفكار ألتوسير مرجعاً مهما في تصور الباحثين اللاحقين للخطاب وأنماط تحليله، كما وجهت كثيراً منهم إلى لون من الخطاب هو الخطاب السياسي باعتباره الأنموذج الذي يجسد بوضوح العلاقة المعقدة بين اللغة والإيديولوجيا. ونذكر في هذا الصدد أعمال ميشيل فوكو Foucault الذي تحدث في مصنفاته، سواء في "نظام الخطاب" أو في"حفريات المعرفة" عن المؤثرات التي توجه الخطاب من خارجه ومن داخله، ووقف عند الضوابط التي تحكم المتكلم وما يتلفظ به من كلام، فاستحضر مسألة البنية الثقافية والسياسية والاجتماعية ممثلة بمظاهر اللغة والتاريخ والسلطة داخل الحياة، فاتخذ عنده الخطاب أبعاداً معرفية ووجودية، ونظَّر له بوصفه مفهوما مرتبطا بالإنسان ومؤسساته، وإطاراًمرجعيا تنتظم به أمور الناس والحياة، وتستقر على إثره المجتمعات والدول أو تنهار، فربطه بالسلطة وجعلهناقلها ومنتجها، بوساطته تتقوى السلطة أو تنهار، فقوته من قوتها وضعفه من ضعفها. يقول فوكو:" أفترض أن إنتاج الخطاب في كل مجتمع، هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومنتقى ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته، ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة"[17].

لقد ارتبطالخطاب، في فكر فوكو،بالسلطة "التي نحاول الاستيلاء عليها"[18]، إنّه آلية لبناء هذه السلطة وتقويتها، كما أنه أداة لجعلها ضعيفة ومنهارة، لذلك، فإنتاجه في كل مجتمع، ليس اعتباطيا وبعيدا عن هموم الفاعل السياسي أو الاقتصادي أو الاعلامي، بل هومراقبومنظمومتحكم فيه وفي نتائجه وتأثيراته المتوقعة.

إنّ دلالة مفهوم "الخطاب" عند ميشيل فوكو، تأسست من خلال مرجعيته العلمية، وتصوره للعلاقات الإنسانية، ومن خلال نظرته للمعرفةولمفهوم التاريخ، ففوكو لم يكن يهدف إلى تحليل المعنىووصف بنى اللغة، وإنّما كان يسعى إلى دراسة التشكيلات الخطابية والقوانين التي تحكم تكوينها، والممارساتالخطابية واستراتيجيات عملها وضوابط تحولاتها،والوظائف المختلفة للخطابات في التاريخ، حتى اعْتبِر "الخطاب في التاريخ"، هو

موضوع فوكو المركزي، ليصبح الخطاب مدخلا لتحليل الموضوعات التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، ولا يبعد هذا التصور كثيراً عن آراء بورديو Bourdieuالذي نظر إلى الخطاب من زاوية سلطته على المجتمع، فتحدث عمّا أسماه بالممارسات الاجتماعية للرأسمالي الرمزي، وبيّن عمل بعض الخطابات في توجيه المجتمعات وضبطها، وأشار إلى أنّ كل خطاب يُنظر إليه في صلته الصراعية مع خطابات أخرى، وخاصة الخطاب السياسي والديني والخطابات ذات النفحة الإيديولوجية، التي تملك القدرة التوجيهية والقوة الرمزية المؤثرة على الأفراد والمؤسسات على السواء، وتتضمن مخاطر تهدد الذوات والمجتمعات، وتحمل في طياتها صراعات، وينتج عنها استغلال واستعباد واستبعاد واستقواء...، وقد أصرّ بورديو على الطابع الاجتماعي والاقتصادي للغة، فعمل على نقد النموذج اللساني الصرف للخطاب ليظهر آليات السلطة والمعرفة في اللغة والخطاب، فوقف كثيراً عند طبيعة العلاقة بين اللغة والسلطة والفاعلين الاجتماعيين وشروط إنتاج الخطاب وشرعيته.

وجدير بنا في هذا الإطار، ونحن نتحدث عن الخطاب وأبعاده السياسية والاجتماعية، أن نستحضر رؤية هابرماس للخطاب، وهي رؤية تناسقت مع نظريته البراغماتية، فنظر إلى الخطاب بكونه تواصلا عن التواصل، وفصّل نظرته هذه من خلال أربع نقاط رآها هابرماس مهمة ينبغي استحضارها، فأورد نصا نورده ببعض التصرف:" أولا: الخطاب ليس مرادفا للغة أو الكلام، لكنه اصطلاح فني لشكل تأملي من الكلام بهدف التوصل إلى إجماع مدفوع بالعقلانية(...)ثانيا: لا يدل اصطلاح الخطاب على شكل نادر وغير مألوف من النشاط اللغوي الذي يمارسه في المقام الأول الفلاسفة والمتحذلقون، بل يسلط الخطاب الضوء على ممارسة الجدل وتبرير الشائعة التي تدخل في نسيج الحياة اليومية(...)ثالثا: يرتبط مفهوم الخطاب ارتباطا وثيقا بمفهوم ادعاء الصحة. فالخطاب يُستهل بطعن من قبل المستمع للمتكلم، إذ يطلب إليه أن يبرر ادعاءه الصحة(...)والنقطة الرابعة والأخيرة هي أن الخطاب نشاط شديد التعقيد والانضباط وليس كلاماً شفهياً في متناول الجميع، وهذا لأن المحاجّة ممارسة تتشكل تبعا لقواعد قابلة للتحديد والصياغة"[19].وقد تحدث هابرماس عن هذه القواعد، وأشار إلى أنّها ثلاثة مستويات متعاقبة تبدأ بالقواعد المنطقية والدلالية التي تجعل الخطاب متّسقاً ومنسجما ليحقق بعده التواصلي، وتمر عبر تحديد المعايير التي تربط بين المتخاطبين منها؛ مبدأ إخلاص النية الذي يقوم على فكرة تأكيد الاعتقاد بما يتم التصريح به، ومبدأ المساءلة لتبرير مايتم

تأكيده، وصولا إلى المعايير التي تُحَصّن عملية الخطاب، وتجعل العملية التواصلية مبنية على أسس المشاركة الحرة والحرية في التعبير عن الآراء والرغبات، والمساواة في ممارسة الفعل الخطابي، إلى غير ذلك من المقتضيات التي تؤسس لما يسميه هابرماس بالوعي الأخلاقي والفعل التواصلي.

3- مفهوم الخطاب بين اللسانيات والتداوليات وفلسفة اللغة

في سياق تطور اللسانيات الحديثة تبلورت دلالات جديدة لمفهوم الخطاب، وبرزت مشاريع مختلفة وتصورات متعددة لمقاربة إشكالاته، والبحث في دلالاته واستنباط معانيه، ويرى الباحثون في مجال تحليل الخطاب أن ز.هاريس Z.Haris من الأوائل الذين طرحوا إشكالية الخطاب من خلال اهتمامه بعملية توزيع العناصر اللغوية في الخطاب، في إطار توسيع حدود الوصف اللساني ليتجاوز طروحات بلومفيلد Bloomfieldالذي حصر عمله في حدود الجملة، وقد اعتبر، هاريس، أن الخطاب موضوع أساسي للدرس اللساني، فطرح منهجا إجرائيا لتحليله، مطبقا تصوره التوزيعي عليه، وعرفه بأنه "ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[20].

وإذا كان هاريس ومن سار في فلكه، اكتفى في تعريفه للخطاب بالحد الوصفي اللساني المحض دون الخوض بشكل مستفيض في تبيان العلاقة الموجودة بين اللغة والفكر والمجتمع والثقافة، واكتفى بالاشتغال على متون قصيرة، موظفا التحليل بحسب المكونات المباشرة، الأمر الذي لم يسمح بالتعرف العميق على منطوق الخطاب ومضمونه. فإن بنفينست من خلال كتابه "مسائل اللسانيات العامة" تجاوز بعض طروحات دوسوسير، خاصة ما تعلق بفكرة اعتباطية اللغة واعتبار اللغة بنية مغلقة، إلى التعامل مع هذه اللغة بوصفها نظاما مخزنا في ذهن الإنسان تتحول إلى كلام (جملة/ خطابا) عند عملية التلفظ. فأسهم بأبحاثه حول التلفظ وسيميولوجيا اللغة في إضافة رؤية جديدة لتحليل الخطاب، فقابل بين الخطاب واللغة، واعتبر هذه الأخيرة بنية تتألف من مجموعة من العناصر الثابتة والمنتهية، والتلفظ فعلا فرديا يشغل به المتكلم نظام اللغة، أما الخطاب فهو التجلي للتلفظ، أي إنّه" اللغة في حالة فعل"[21]، وهو ما يقتضي "بالضرورة اللغة بين شركاء"[22]، فاستحضر، بناء على ذلك، هذه التصورات في تعريفه التواصل، إذ حدّه بأنه" كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[23]، ونظر إلى

الخطاب باعتباره كل مقول، يتضمن وقائع لغوية تظهر في التلفظ في العملية التواصلية، ويفترض متكلما ومستمعا، وهدفه التأثير والإقناع.وبدوره قدم معجم اللسانيات(1973) ثلاثة تحديدات للخطاب:" فهو أولا يعني اللغة في طور العمل، أو اللسان الذي تتكلف بإنجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام بتحديد دوسوسير، وهو يعني ثانيا، وحدة توازي أو تفوق الجملة، ويتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية وهو هنا مرادف للملفوظ. أما التحديد الثالث فيتجلى في استعمال الخطاب لكل ملفوظ يتعدى الجملة منظوراً إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل"[24].

لقد حصلت، إذن، تطورات في تناول مفهوم الخطاب، من وجهة نظر الدراسات اللسانية، وآليات تحليله، وإن بقيت في عمومها حبيسة الأدوات الإجرائية للسانيات البنيوية، كما نجد عند بلومفيلد وهاريس وغيرهما- التي حاصرت مفهوم الخطاب وسيجته ضمن حدود تحليلات البنيوية على تنوع مشاربها، فجاء الخطاب عندهم متتاليةً من الجمل كما أورده «ز. هاريس» يحلل إلىمكوناته اللغوية المباشرة، ليتوسع مع أبحاث بنفينست الذي استحضر المقاربة التلفظية، وأشار إلى المقومات التواصلية التي تستدعي المتكلم والمتلقي والرسالة وشروط إنتاجها، وقرن الخطاب بالفعل التواصلي لغايات تأثيرية محضة.

بيد أن البحث في مفهوم الخطاب ووظائفه وأدواره التاريخية، لم يقف عند هذا الحد، ولم ترسُ نظريات تحليله عند هذا المرسى، فقد نما البحث فيه وازداد الاهتمام به، وخاصة مع ظهور عدد من الأعمال التي أعاد أصحابها النظر في العلاقة القائمة بين الإيديولوجي واللغوي" وانتفضوا على اتجاهين سائدين في دراسة الخطاب: اعتدّ أولهما بالتشكل اللساني للخطاب، فاختزله في تحليل مكوّناته اللّغوية، وبالغ الثاني في إيلاء الإيديولوجيا مكانة كبيرة حتّى ذوّب ما هو خطابيّ في ما هو إيديولوجي"[25]، فتطور مع تطور الدراسات التداولية التي أسهمت في إشاعة المصطلح وترويجه"بدءا من الثمانينات في القرن العشرين ليصبح جاريا على ألسنة الباحثين، يشيرون به إلى العملية القولية في المطلق وإلى ما كان منها مفردا، معبرين بذلك عن تصور للغة يختلف عن ذلك الذي يدرس نظامها بغض الطّرف عن السياق وبعيدا عن ساحة الاستعمال، وينطلق من الخطاب كيانا يختلف عن الجملة اختلافه عن النص، ويستأثر دونهما بجملة من الخصائص تتعلق ببنيته وكيفية تولد المعنى فيه وبجملة القواعد المتحكمة في إنتاجه ورواجه وتلقيه"[26]،ففتحت هذه النظريات التداولية "أفق البحث أمام المجال الحيوي للفعل الإنساني، بما يحمله من

مؤهلات ذاتية تطلق لدى الفرد حرية المبادرة والإبداع، وبما يراكمه من تجارب فردية ومعارف موسوعية ووقائع خارجية تنقل الفرد من مجال الأقوال إلى ميدان الأفعال"[27].

إنّ التداولية، بهذا التحديد، خاصة مع أعمال أوستين وسورل وغرايس وغيرهم من فلاسفة اللغة، قد عنيتْ بدراسة اللغة لحظة تداولهابين مستعمليها في سياقاتها الواقعية، فنظرت إلى الخطاب في بعده الوظيفي، لذلك جعلت من الأداء التخاطبي ضمن سياقاته منطلقا لفهم اللغة والخطاب، فلم تعد اللغة مستقلة عن الممارسة التخاطبية، ففهم المعنى وإنتاجه يتطلب النظر إليه من زاوية استعمال اللغة بين المتكلم والمتلقي وفي ضوء المعينات التواصلية الذاتية والإحالية، والاهتمام بما ينتجه السياق من معان جديدة، وقد ميّز طه عبدالرحمن بينها وبين الدّاليات التي تدرس الصوت الطبيعي في نطقه وصوره وعلاقاته (الصوت/الصرف/التركيب)، والدّلاليات التي تصف العلاقات التي تربط الدوال بمدلولاتها، وعرّف بأنّها" الدراسات التي تختص بوصف- وإن أمكن بتفسير- العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدّالين بها"[28]، ضمن فضاء تداولي يستحضر " كل المقتضيات العقدية والمعرفية واللغوية-القريب منها والبعيد- المشتركة بين المتكلم والمخاطب والمقوّمة لاستعمال المتكلم لقول من الأقوال بوجه من الوجوه"[29].

وعليه، قامت هذه النظرية بنقض الأطر المنهجية التي اشتغلت بواسطتها النظريات التركيبية والدلالية في مقاربة اللغة والخطاب على السواء، وقدمّت أطرا جديدة تستدعي مفاهيم أخرى.

ولتبيين أوجه الخلاف بينها وبين باقي النظريات، نستدعي التمييزات التي أقامها شارل موريس بين المجالات الثلاثة في دراسة اللغة[30].

أ- المجال النحوي أو التركيبي:

ويتعلق الأمر بمجموع القوانين التي تضبط عملية الصحة النحوية للكلام، من أجل أن يكون مقبولا لدى مستخدمي اللغة المستعملة في التعبير.

ب- المجال الدلالي:

ويدرس مجموع العلائق القائمة بين المعاني والأشياء التي تعينها في إطار اللغة.

ج- المجال التداولي:

وهو الذي يدرس علاقة العلامات باستعمالاتها ومقاماتها وأطرافها التداولية.

وبناء عليه، سعت النظرية التداولية إلى الإفصاح عن خلفيتها الإبستيمولوجية في مقاربة اللغة والخطابات بجميع أشكالها، بما في ذلك الخطاب السياسي، مرتكزة على جملة من المفاهيم التي شكلت قاعدتها النظرية والإجرائية، وهي مفهوم العمل والسياق والكفاءة. وهي مفاهيم تعرض إليها أبو زيد- في شرحه للأفعال الإنجازية عند أوستين وسورل (Austin-Searle)- ضمن مقاله "المنهج التداولي في مقاربة الخطاب"، وأشار إلى أن:

-مفهوم الفعل: يعنى أن اللغة لا تستعمل فقط لتمثيل العالم، ولكن تستعمل بالمقابل في إنجاز أفعال.

-مفهوم السياق: ويعني به الموقف الفعلي حيث توظف الملفوظات، والمتضمن بدوره لكل ما نحتاجه لفهم وتقييم ما يقال.

-مفهوم الكفاءة: يقصد بها، تماشيا مع المعنى الأصلي للكلمة، إنجاز الفعل في السياق، أو بصياغة مغايرة مبسطة، فإن الكفاءة هي حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق، وهذا الإسقاط يختلف المتكلمون في مستوياته ودرجاته، وبناء عليه تتحدد كفاءتهم التواصلية"[31].

لقد شكلت هذه المفاهيم مرجعاً أساسياً لمبدأ القصدية والأفعال الكلامية، التي تعد مرتكزاً لأعمال سورل اللغوية، الذي اقترح أنموذجاً عملياً يمكن من صياغة دلالة التلفظ انطلاقاً من فعل الكلام وقصدية المتكلم، حيث اعتبر أن كل نشاط لغوي هو في حقيقته عمل قصدي يهدف إلى الفعل والتأثير في المتلقي، وعليه، تحكّمت فكرة العلاقة بين التصورات الذهنية للمتكلم والمستمع والأنماط اللغوية اللسانية في توجيه طروحاته وأبحاثه في فلسفة اللغة، وقد أورد جملة من التساؤلات، ودعا إلى البحث فيها للإحاطة بمشكلة المعنى والتواصل، نذكر منها:" كيف نمر من الفيزيائي إلى الدلالي؟ أي كيف لمجرد أصوات أن تصبح حاملة للمعنى؟ وما الذي يجعل من ذلك المنتوج، سواء كان ملفوظا أو كتابة، شيئا أكثر من مجرد إنتاج صوت أو خطوط؟"[32]. وقد كانت لتساؤلاته أهميتها القصوى في تطوير التداولية الحديثة، كما انعكست على رؤيته إلى مفهوم الخطاب.

خاتمة

نخلص إلى أن مفهوم الخطاب متعدد الدلالات ومتنوع الوظائف، وقدنما وازدهر ضمن مجموعة من الحقول المعرفية والمجالات العلمية، وتحكمت في تشكله روافد متنوعة بمرجعيات ثقافية وخلفيات دينية وإيديولوجية وفلسفية ولسانية. وهكذا، تحددت ملامحه

ضمن الفضاء الأثيني، بحمولاته السياسية والفلسفية والبلاغية، فتبلور استناداً إلى رؤية إبستمولوجية وسياسية وحضارية تجسّدت من خلال الفلسفة اليونانية مع السوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو وتجلّت مع طبيعة النظام السياسي بأثينا، وتمظهرت معكتابات الغربيين المحدثين سواء المتأثرين بالفكر الماركسي أو بالفكر الليبرالي، فجاء مفهوم الخطاب تعبيرا عن مرجعيات فلسفية وعلمية وخلفيات أيديولوجية وسياسية مرتبطة بالسلطة كآلية لإنتاج الخطاب والتأثير في الأفراد والمجتمع، كما تطور هذا المفهومفي إطار الدرس اللساني تطورا طبيعيا تساوقا مع السياقات العلمية المعاصرة، وتجاوبا مع انفتاح اللسانيات على باقي المجالات المعرفية، بما فيها التداوليات، لاحتواء القضايا التي يطرحها الخطاب والإشكالات المعرفية التي يفرزها، وإن عمل آخرون وعلى رأسهم بورديو على نقد النموذج اللساني الصرف للخطاب ليظهر آليات السلطة والمعرفة المؤسسة لمفهوم الخطاب، ويبرز طبيعة العلاقة بين اللغة والسلطة والفاعلين الاجتماعيين وشروط إنتاج الخطاب وشرعيته.

وعلى هذا الأساس فإن أي محاولة تسعى إلى الإمساك بمفهوم الخطاب وتقديم تفسير لوظائفه وأبعاده وأدواره المؤسساتية لا يمكن أن تتم إلا باستحضار الخلفيات العلمية والفلسفية والمرجعيات الإيديولوجية واللسانية التي أسهمت في بلورته ورسم معالمه.

مراجع البحث وإحالاته:

1-يحيل مفهوم الغرب، في هذا المقال، إلى جملة من الترسّبات الفكرية المستندة إلى خلفية سياسية ودينية وتاريخية، ويضم مجموعة من الرموز الثقافية، والأنساق الفلسفية والخلفيات الإيديولوجية التي نشأت في أحضان مسيرته التاريخية.

2- نثير انتباه القارئ أن مصطلح" الخطابة" أثار بعض الإشكالات، على مستوى الترجمة، في علاقته بالكتاب الأصلي لأرسطو"Rhéthorique"، فاختلفت الترجمات بين " البلاغة" و "الخطابة" و"الريطوريقا"، ويرى حمادي صمود أن الحقل المعنوي لكلمة"Rhéthorique" لا يطابق في الأعم الحقل الذي تبنيه كلمة "بلاغة" في السنن العربي" حمادي صمود، مقال: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، ص11، لأن البلاغة تبحث في المجازات والصور والوجوه، لذلك نجد بعض الباحثين حرصوا على إبقاء المصطلح كما ورد في أصله"ريطوريقا" (محمد العمري نموذجاً)، وهناك من الباحثين (ابن رشد مثلا) من ترجمه ب" الخطابة" استناداً إلى البعد الإقناعي الذي يهدف إليه القول الخطابي. وسنبنى في هذا المقال

مصطلح الخطابة الذي يتناسب مع موضوعنا. وأشير كذلك، في إطار التمييز بين الخطابة والخطاب إلى اعتبار الخطاب ركنا من أركان الخطابة، على أساس أن الخطابة تتكون من الخطيب والمخاطَب والخطاب. والخطاب "مجموعٌ متسق من الجمل متماسك، يملك وحدة معنى ويتحدث عن الموضوع نفسه" أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة ترجمة رضوان العصبة، افريقيا الشرق، 2017، ص227، كما أنه لغة مناسبة للمقام، تتطلب مقدمات وخواتم متناسقة، وتتكون من حجج تستدعي طريقة لترتيبها وكيفية لتنسيق أجزاءها).

3-Aristote, la politique, traduction par j .Teicot, éd, Vrin, paris, 1982 , p .29

نقلا عن محمد الولي، الخطابة والحجاج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2020، ص122.

-4جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، الجزء الأول، بيروت، الشركة العالمية للكتاب1982، ص531

5- أرسطو طاليس، الخطابة، تحقيق عبدالرحمن بدوي، بيروت، دار القلم، 1979، ص9.

6- ابن شد، تلخيص الخطابة، ترجمة عبدالرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ص16/15.

7- أرسطو طاليس، الخطابة، المصدر نفسه، ص186.

8- أفلاطون، في السوفسطائيين والتربية، محاوة بروتاجوراس، ترجمة عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص24

9- أفلاطون، محاورة جورجياس، ترجمة محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص7.

10- ابن رشد، تلخيص الخطاب، مرجع سابق، ص12/11.

- 11 نورمان فاركلوف" تحليل الخطاب، التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبه، المنطمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص235.

12- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط1، 2001، ص111.

13- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، المرجع نفسه، ص109

- 14فان دايك، من نحو النص إلى تحليل الخطاب، ترجمة أحمد صديق الواحي، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، العدد77، 2010، ص36.

15- فان دايك، من نحو النص إلى تحليل الخطاب، المرجع نفسه، ص36

16- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديميةط1، 2001، ص.116

17- ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، التنوير، ص4.

18-ميشيل فوكو، نظام الخطاب، المرجع نفسه، ص5.

19- يورجن هابرماس، الفلسفة والسياسة، الحرية للنشر والتوزيع، صص 63-64.

-20 يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط4، 2005، ص.17

21- إميل بنفنيست، الذاتية في اللغة، ترجمة حميد سمير/عمر حلي، نوافذ، عدد9، سبتمبر1999، ص62

- 22إميل بنفنيست، الذاتية في اللغة، المرجع نفسه، ص62.

23 -Benveniste, Problèmes de Linguistique générale. édi. Gallimard. Tome.1. 1996.P :241

- 24سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، ص21.

- 25حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص9.

- 26 حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، المرجع نفسه، ص19.

-27عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، افريقيا الشرق، ط2، 2012ص7.

28- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص28.

29- طه عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص28.

30- نواري سعودي أبو زيد، المنهج التداولي في مقاربة الخطاب، فصول، العدد88، الهيئة العامة المصرية للكتاب، شتاء-ربيع 2010، ص124.

31- نواري سعودي أبو زيد، المنهج التداولي في مقاربة الخطاب، فصول، المرجع نفسه، ص 128/127.

32 -Searle , L'Intentionalité , Essai de philosophie des états mentaux, Ed, Minuit,, 1985, p198 .

قائمة المصادر والمراجع

1. -أفلاطون ق. (2001). في السوفسطائيين والتربية، محاورة بروتاجوراس (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع). القاهرة: ترجمة عزت قرني.
2. -أفلاطون ق. (1970). محاورة جورجياس (الهيئة االمصرية لعامة للتأليف والنشر). مصر: ترجمة محمد حسن ظاظا.
3. -بنفينسيت إ. (1999). الذاتية في اللغة. مجلة نوافذ, (9), 61-
4. 76.
5. -دايك ف. (2010). من نحو النص إلى تحليل الخطاب. مجلة فصول, (77), 20-50.
6. صليبا ج. (1982). المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية (الشركة العالمية للكتاب). بيروت: لبنان.
7. -طاليس أ. (1979). الخطابة (دار القلم). بيروت: تحقيق عبد الرحمن بدوي
8. -فوكو م. (1970). نظام الخطاب (التنوير). التنوير: ترجمة محمد سبيلا.

9. -مكدونيل د. (2001). مقدمة في نظريات الخطاب (المكتبة الأكاديمية). المكتبة : ترجمة عز الدين اسماعيل.

10. -نورمان ف. (2009). تحليل الخطاب، التحليل النصي في البحث (المنظمة العربية للترجمة). بيروت: ترجمة طلال وهبة.

11. -الولي م. (2020). الخطابة والحجاج (مطبعة النجاح الجديدة). الدارالبيضاء: ط1.

12. -يقطين س. (2005). تحليل الخطاب الروائي (المركز الثقافي العربي الدارالبيضاء). ط4.

13. Aristote, T. (1982). la politique (vrin). paris: traduction par j.Teicot.
14. Benveniste, Problèmes de Linguistique générale. édi. Gallimard. Tome.1. 1996
15. Searle , L'Intentionalité , Essai de philosophie des états mentaux, Ed, Minuit, 1985